العقل بين ابن المقفع والجاحظ دراسة وموازنة في ضوء المنهج الموضوعاتي

د. زياد بن علي بن حامد الحارثي

تخصص أدب ونقد - الأستاذ المساعد بكلية العلوم والآداب بخليص

قسم الثقافة الإسلامية والمهارات اللغوية

جامعة جدة

مستخلص. سعى البحث إلى هدف رئيس هو الكشف عن سمات العقل عند كل من ابن المقفع والجاحظ من خلال كتاباتهما، واتخذ من المنهج الموضوعاتي ومبادئه الأساسية (الأنا والعلاقة مع العالم، والخيال)، وكذا المنهج المقارن أداة علمية للدراسة والموازنة.

وشمل البحث عدة محاور منها: علاقة الأدب بالفلسفة، والعقل في الفكر الإنساني، وتجليات العقل عند كل من الجاحظ وابن المقفع، واختتم البحث بمبحث يوازن بين سمات العقل عند كل منهما.

ومن أبرز النتائج التي توصل إليها البحث سمات مشتركة بين ابن المقفع والجاحظ وسمات انفرد بها الجاحظ، ويمكن القول إن وجود خاتمة البحث جاءت لتؤكد أن (العقل) موضوعٌ جليٌّ بل لاستشراف سماته ومظاهره وقيمه الفكرية والعملية المؤثرة في أدب ابن المقفع الأديب الحكيم، والجاحظ الفيلسوف الأديب، وهنا يجتمعان ويفترقان أيضاً.

كلمات مفتاحية: ابن المقفع، الجاحظ، العقل.

المقدمة

فإن كان الأديب الذي نقرأ أعماله كابن المقفع (ت

١٤٢هـ) ممن اشتهروا بأنه (ابن المقفع أديب العقل)^(١) أو كان مشهوراً بانتمائه إلى فرقة فلسفية

إن قراءة الأدب تكشف للناقد متعة اللغة وإمتاع العقل، والجمال، والاقناع، والمبادئ والقيم، فالأديب ليس الصورة الجمالية الفنية فقط، بل هو أيضاً الانطباع عن عقلية الأديب، ورؤيته للكون والحياة.

(١) ينظر فكتور الكك، ابن المقفع أديب العقل، ١٩٨٦م، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

أكثر منه معرفة، وأن هذه التجربة ذات جوهر روحي"^(٥). إن المنهج الموضوعاتي يلتقط دلالات الموضوع من دوال النصوص^(٦).

والبحث عن الموضوع في العمل النص الأدبي أمداً "بعنصر مشترك مدلولي وإلهامي يسمح بمقارنة أعمال مؤلفين مختلفين انطلاقاً من (فهرس واحد)"^(٧).

ومن ثم "يسعى الناقد الموضوعاتي إلى الكشف عن قصد الكاتب الذي يتجلى في عمله، ويستحوذ على جل اهتمام من خلال المشاهد والأحداث والصفات التي يحاول ربطها لتشكل مشروع المبدع"^(٨).

هذا الموقف يركز على "ما يستحق العناء هو دراسة الموضوع شخصياً، وليس الموضوع في حد ذاته، فالموضوع لا ينفصل عن التصور النهائي الذي أضفاه الكاتب عليه، ومن ثم فالمنهج يجب إذن أن يراقب موضوع العمل الأدبي محدداً، وليس مجرد موضوع تجريدي فيه، ولا يقسم العمل إلى شكل ومحتوى، وإنما يضيء موضوعاته لكي يراها أفضل"^(٩). وآمل أن يكون اختيار هذين المنهجين، والمزج بينهما مرشداً للكشف عن هدف البحث.

وكلامية تجعل العقل في المقدمة^(٢)، فقد كان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) معتزلياً، بل نشأ عن انتشار آرائه وأفكاره فرقة تحمل اسمه (الجاحظية)^(٣). فالأديبان يتميزان بثقافتهما الواسعة، وبراعتها في صناعة الأدب براعة في الصناعة العقلية، ومن ثم فقد بدا للباحث موقفهما من العقل من خلال نتاجهما الأدبي، فكان عنوان البحث (العقل بين ابن المقفع والجاحظ دراسة موازنة).

ويهدف البحث إلى توخي النظر في العقل ومكانته ومقامه في أدب ابن المقفع والجاحظ. أما منهج البحث فيغلب على الظن أن تناول موضوع ما ودراسته بين أديبين يتصل من جهة ما بالمنهج المقارن، وهو في عمومته يستخدم لعقد المقارنات ودراسة قضايا التشابه والتمايز أو التأثير والتأثر، "على أن النقاش حول منهجية دراسة الموضوعات والبواعث وصلتهما بالأدب المقارن قد توقف، وبدأ هذا اللون من البحث يأخذ مكانه في دراسات المقارنة بما لها وما عليها لا أكثر ولا أقل"^(٤). كما أنه يتصل من جهة بالمنهج الموضوعاتي، وفكرته المركزية هي أن الأدب هو موضوع تجربة

(٥) رضوان ظاظا، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ١٩٩٧م، عالم المعرفة، العدد (٢٢١) (٩٦).

(٦) ينظر د. يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، ٢٠٠٧م، ط أولى، الجزائر، جسور، (١٦٠).

(٧) رضوان جنيدي، عبد الحميد بيقية، النقد الموضوعاتي الأسس والإجراءات، ٢٠١٩م، مجلة آفاق علمية، المجلد ١١، العدد (٤)، (٦٠٤).

(٨) السابق (٦١٤). وقد لخص الباحثان أسس المنهج الموضوعاتي في (الأنما المبدع - العلاقة مع العالم - الخيال وحلم اليقظة).

(٩) إنريك أندرسون، مناهج النقد الأدبي، ترجمة د. الطاهر أحمد مكي، ١٩٩١م، القاهرة، مكتبة الآداب، (١٥٨).

(٢) المعتزلة "تبنيوا نزعة عقلية ولدت فيهم حرية الفكر والرأي، وحاولوا نشرها في مجتمعهم، وعملوا على نموها وتطويرها، وفي الحقيقة لا تكاد نجد مدرسة كلامية نمت فيها هذه الحرية الفكرية كما نمت في رحاب مدرستهم"، ينظر محمد صالح محمد السيد، مدخل إلى علم الكلام، ٢٠٠١م، القاهرة، دار قباء (٢١٩)، وينظر د. حسن محمود الشافعي، المدخل إلى دراسة علم الكلام، ٢٠٠١م، ط ثانية، باكستان، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية (٩١).

(٣) ينظر الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق: أحمد فهمي محمد، ١٩٩٢م، ط ثانية، بيروت، دار الكتب العلمية (٦٥/١).

(٤) الطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن، أصوله وتطوره ومناهجه، ١٩٨٧م، القاهرة، دار المعارف (٣٣٦).

جميعاً متفرداً. هو يحمل من الفلسفة تلك الـ ((لماذا)) المقلقة، هو يحمل من الفلسفة آفاقها وقضاياها وتحدياتها، وهو لذلك فلسفي، بينما يبقى له من الفن جماليته ونقده وأصالته، وهو لذلك أدب^(١١).

ومن عناصر التدقيق الأدبي "تحليل الخلفية الفلسفية والتاريخية للنص"^(١٢). فالنص ليس تعبيراً لغوياً إبداعياً فقط، بل يتحدث عن الحياة بكل ما فيها، منها ما هو ذاتي له علاقة بنفسية الأديب وشخصيته، ومنها ما هو خارجي عن الذات، وهذا لا ينفك أن يراه الأديب بعيونه، وبكل مكوناته الفكرية والثقافية، ولا يقتصر ذلك على الموضوعات الأدبية التي يتناولها الأديب، وتكون ذات صلة بالفكر والتفكير والرؤية الفلسفة، بل قد تتداخل هذه الأمور فيما بينها، فنجد رؤية فلسفية في المزاح، وترويحاً للنفس في عمق الرؤية الفلسفية.

هل الفلسفة تلك التي تنهت فيها العقول، ولا يدرك كنهها إلا النواخب؟ يمكن القول: ببساطة بصلتها بكل تعبير أدبي، أليس هذا اختزالاً مخلاً لتعقيد الفلسفة؟

إن "الفلسفة ليست من الغرابة والتعالي والتعقيد، بحيث لا يمكن إدراكها أو ربطها بالتاريخ وبحياة الناس الفعليين الذين يحسّون وينتجون ويبنون حضارة وتاريخاً وثقافة... الفلسفة نشاط إنساني معرفي ((مفهوم))... هذا الفهم لطبيعة الفلسفة، هو ما سيسمح دون سواه برؤية الإطلاقات والمواقف

خطة البحث: تقتضي طبيعة عنوان البحث، أن يتم تناوله وفقاً للخطة التالية في مدخل، وثلاثة مباحث: مدخل: (١) علاقة الأدب بالفلسفة.

(٢) العقل في الفكر الإنساني.

المبحث الأول: تجليات العقل عند ابن المقفع.

المبحث الثاني: تجليات العقل عند الجاحظ.

المبحث الثالث: موازنة بين ابن المقفع والجاحظ.

وأخيراً الخاتمة وفهرس المراجع.

مدخل:

(١) علاقة الأدب بالفلسفة.

يعد الأدب في بعض جوانبه - من منظور الأديب - رؤية للحياة، وله جوانب متعددة يمكن النظر إليه من خلالها، "الأدب يشمل كافة الآثار اللغوية التي تثير فينا بفضل خصائص صياغتها انفعالات عاطفية أو إحساسات جمالية... وبهذا يخرج من الأدب التفكير العلمي الجاف والتفكير الفلسفي المجرد ولكنه لا يخرج الكثير من الكتابات الفلسفية أو الاجتماعية أو التاريخية المصوغة بصياغة أدبية"^(١٠).

فالأدب من زاوية ما وجهة نظر للمبدع، تقبع تأملاته في الحياة ورؤيته وخلفيته الثقافية وأيدلوجيته وميوله ومعتقداته خلف هذه النظرة، ومن ثم هناك علاقة بين الأدب والفلسفة.

و"الأدب الفلسفي أدب أولاً ثم هو فلسفي، فهو إذ يلتزم يتمثل في الأدب، رواية ومسرحاً وشعراً أدباً يحمل بعداً فلسفياً، ويبقى مع ذلك أو ربما لذلك فناً

(١١) محمد شفيق شيا، في الأدب الفلسفي، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (١٣).

(١٢) إرود إيش وآخرون، نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة د. محمد العمري، ١٩٩٦م، إفريقيا الشرق، (١٥).

(١٠) محمد مندور، الأدب ومذاهبه، القاهرة، نهضة مصر، (٨).

أمرًا فاصلا بالنسبة لهويتها^(١٥). وليس أقدر على التعبير عن هذه المواجهة من أديب مبدع، عرف بانتمائه للفكر العقلي.

٢) العقل في الفكر الإنساني.

يمكن القول: إن بعض العلماء يعدُّ الدماغ الموجود في جمجمة الإنسان هو العقل وهو المسؤول عن العمليات العقلية، ومن ثمَّ تغنى النفس حين يفنى الدماغ. والبعض الآخر يعدُّ العقل شيئاً غير مادي، فهو قوّة وليس له تمثيل مادي^(١٦).

ويطلق الفلاسفة العقل على عدة معانٍ:

- ((جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها)).

- ((قوة النفس التي بها يحصل تصور المعاني، وتأليف القضايا والأقيسة)).

- ((قوة الإصابة في الحكم، أي: تمييز الحق من الباطل، والخير من الشر، والحسن من القبيح)).

- ((قوة طبيعية للنفس متهيئة لتحصيل المعرفة العلمية، وهذه المعرفة مختلفة عن المعرفة الدينية المستندة إلى الوحي والإيمان)).

- ((مجموع المبادئ القبلية المنظمة للمعرفة كمبدأ عدم التناقض ومبدأ السببية ومبدأ الغائية)).

- ((الملكة التي يحصل بها للنفس علم مباشر

الفلسفية تتدثر جمالية الأدب رداءً أخاذاً، فتجد لها بالتالي أكثر من طريق إلى القلب والعقل^(١٣). من هنا يتبين أن الفلسفة ليست غريبة عن الأدب بل هي ميدان واسع يوظفه الأديب بطريقته الخاصة وينطلق من خلالها لرؤية العالم من منظور فلسفي خاص.

فالفلسفة في تعريفٍ لها هي "علم القوانين العامة للوجود أي: الطبيعة والمجتمع، والتفكير الإنساني وعملية المعرفة، والفلسفة شكل من أشكال الوعي الاجتماعي"^(١٤).

هذا الوعي الإنساني بالحياة ينتج الرؤى والأفكار التي هي فلسفة بطريق ما كان المبدع مثقفاً مطلعاً أصيلاً في معرفته وموهبته ومقدرته الأدبية، جاز تلمس طرق تلك العقلية الأدبية وسماتها.

ومن هنا تكون اللغة طريقة للتعبير عن رؤية الإنسان للوجود، وبهذا تختلف رؤى الأمم باختلاف لغاتها، "فجزء مما أدى إلى نشأة الأنثروبولوجيا هو الوعي بأن اللغة الطبيعية لشعب ليست مجرد وسيلة لقول الأشياء نفسها التي يمكن قولها بلغة أخرى، فلغة الشعب هي أيضاً نتاج مواجهته الخاصة مع العالم. ويؤدي فهم هذه المواجهات إلى وعي جديد بحجم الاختلاف الذي ربما يكون عليه العالم بالنسبة لثقافات أخرى، ويستدل على أهمية هذا الأمر بالحالات التي يمكن فيها أن تصبح لغة أقلية عرقية

(١٥) أندرو بووي، الفلسفة الألمانية مقدمة قصيرة جداً، ترجمة محمد عبد الرحمن سلامة، ٢٠١٥م، الطبعة الأولى، القاهرة، مؤسسة هنداوي، (٢٦).

(١٦) ينظر ماريو بونجي، المادة والعقل، ترجمة صلاح إسماعيل، ٢٠١٩م، الطبعة الأولى، القاهرة، المركز القومي للترجمة (٣٧٥ - ٤٠٧)، سرجيو مورافيا، لغز العقل، ترجمة عدنان حسن، ٢٠٠٢م، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، (٣٣٠)، د. محمد عمارة، مقام العقل في الإسلام، ٢٠٠٨م، الطبعة الأولى، القاهرة، نهضة مصر (٧).

(١٣) محمد شفيق شيا، في الأدب الفلسفي، (٢٢).

(١٤) روزنتال، يودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، بيروت، دار الطليعة، (٣٣٦)، وينظر د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ١٩٨٢م، بيروت، دار الكتاب اللبناني (١٦٠/٢).

الفكري والحضاري الإسلامي فإن الصواب صوابان:
١- صواب النبوة والرسالة الذي جاء به نبأ السماء العظيم.
٢- صواب العقلانية الذي تبذره الحكمة الإنسانية والعقل الإنساني^(١٨).

إن العقل في الإسلام وسيلة التعرف على الله الواحد الخالق، وهو الأداة التي يمكنها من خلال اقتناعها بوجود الخالق أن تجعل الإنسان ينقاد مؤمناً لبارئه، وهنا يكون من العقلي أن يتراجع العقل المسلم في قناعة وخضوع، ليحل ثانياً بعد التسليم والطاعة لله التي تأتي أولاً، وهذا العمل يؤيده أن الخالق كلي العلم مطلق القوة والإرادة والمعرفة، ويقصر العقل هنا أن يحدد أو يفهم كليات المبادئ، ويكتفي بالعمل بمقتضى أمر الله ونهيه.

المبحث الأول: تجليات العقل عند ابن المقفع.

إن المتتبع لآثار ابن المقفع يلحظ أنه كان يميل إلى لغة العقل التي كانت تأخذ منحى الاسترسال وعدم التكلف، كما يتجه إلى الواقعية والمنطق من خلال محاكاته للأمور ومناقشاته للمسائل التي يسلط عليها الضوء.

وبداية يمكن التفرقة بين نوعين من تجلي العقل، الأول: هو الشخص المحب للحكمة الذي يزن الأمور بعقله، ويفكر بمنطق، وهذا ما ينتمي إليه ابن المقفع من خلال كتاباته^(١٩). الثاني: الشخص

بالحقائق المطلقة، وإذا قلنا بوحدة العقل وموضوعه دلّ العقل حينئذ على المطلق نفسه، فكأن هذا العقل شيء مستقل عنا ونحن نتلقاه من الخارج كما نستشق الهواء المحيط بنا)).

- ((مجموع الوظائف النفسية المتعلقة بتحصيل المعرفة كالإدراك والتداعي والذاكرة والتخيل والحكم والاستدلال إلخ))^(٢٠).

وفي كل الأحوال فإن العقل هو المسؤول عن عملية التفكير والمعرفة، وتحديد الصواب والخطأ، وهو مناط التكليف في الإسلام، فالإنسان العاقل هو ما يمكن إلزامه بتحمل مسئولية أفعاله وأفكاره، والعقل هو أساس في العمل الفني، لأن هذا العمل بدايته الخيال، ولو ترك الخيال منفلاً ومستقلاً عن العقل، فإن العمل الأدبي ستحكمه الفوضى، ومن هنا تأتي ضرورة العقل لضبط المشاعر والأحاسيس وكذلك الخيال.

أما عن النظرة الإسلامية للعقل فيقول محمد عمارة: "العقلانية الإسلامية نابعة من الدين وليست غريبة عن الدين ولا هي ثورة عليه، والكتاب المؤسس لتلك العقلانية الإسلامية هو القرآن الكريم ... ورسالة العقل والعقلانية هي الانتصار للإسلام وليست الثورة على هذا الإسلام... تميز التعريف الإسلامي للعقل، فقال جمهور علماء الإسلام من المتكلمين والفقهاء: ((إن العقل ملكة وغريزة ونور وفهم وبصيرة وهبها الله - سبحانه وتعالى - للإنسان)) ... في النسق

(١٨) ينظر، مقام العقل في الإسلام، (٨-٩) بتصرف.
(١٩) اعتمدت على ما كتبه ابن المقفع ومجموع في كتاب (آثار ابن المقفع) باستثناء كلبلة ودمنة فهي ترجمة، وتشمل الآثار (الأدب الكبير والصغير، الدرة اليتيمة، رسالة في الصحابة، الآثار الأخرى)، ينظر ابن المقفع، عبد الله، آثار ابن المقفع، ١٩٨٩م، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية.

(٢٠) جميل صليبا، المعجم الفلسفي (٢/٨٤-٨٨) بتصرف.

إن على الأديب أن يقدح عقله بعقول الآخرين وأن يرى مكانته بين عقلاء أصحاب أذهان خصبة، متمكنا من قوة علته ولديه قدر من القوانين الخالدة، كل هذا يبين أهمية العقل وضرورته للأديب عند ابن المقفع، ولعلها دعوة صريحة من ابن المقفع إلى ضرورة إيلاء العقل الأهمية المناسبة.

ولذلك قال عنه راغب العثماني: "فما هذه الآراء الناضجة والحكم الصادقة والتجارب الواقعة وذكر أحاديث النفس وشرح انفعالات الخواطر إلا حجة قاطعة تنبئ بغناء الكاتب وخصوبة ذهنه، وقوة الفراسة والتعليل"^(٢٢). وهذه سمات عقلية وناضجة

تكشف أن ابن المقفع سطر أدبه بعقله وقلمه معا. وقال: "ثم إنا لا نجد كلاما يدل على نكاء الكاتب وسعة تفكيره مما نراه في تضاعيف الكتاب نفسه من القوانين الخالدة التي لم تشذ في حال"^(٢٣).

وهذا يؤكد فرضية ما ذهب إليه البحث من تجلي عقلية ابن المقفع في حكمته التي ملأ بها كتاباته.

وأما أبرز سمات تجليات العقل عند ابن المقفع فهي:

١- **الطرح العقلي وتقسيم الأمور:** فهو دائما يقسم الأمور حسب ما تتجلي له من تقسيمات عقلية، وهذا أثر من آثار الفكر العقلي، ومن أمثلة ذلك: "إذا تقلدت شيئا من الأعمال فكن فيه أحد رجلين: إما رجلا مغتبطا به، فحافظ عليه مخافة أن يزول عنك،

الممارس للعقل أي: العلوم العقلية، فهو متوغل ليس بحب الحكمة بل ممارسة علوم العقل كعلم الكلام والفلسفة، وهذا ما ينتمي إليه الجاحظ.

هذا الحكم الانطباعي تنامي أثناء تجميع المادة العلمية لكلا الأدبيين، وسيتجلى مع قراءتها في البحث.

وثمة ملاحظة مهمة، هي: إن الدراسة الموضوعاتية في أدب الأدبيين ابن المقفع والجاحظ ليست دراسة لتناولهم موضع العقل بالتأليف في رسالة أو كتاب؛ بل هي استشراف لموضوع العقل وسماته وتجلياته في أدب الأدبيين.

وابتداء يرى الباحث أن في سرد بعض الأقوال المأثورة عن ابن المقفع ما يعزز اهتمامه بالعقل والفكر، يقول: "والعقل -بإذن الله- هو الذي يحرز الحظ ويؤنس الغربة وينفي الفاقة ويُعرِّف النكرة ويثمر المكسبة ويطيب الثمرة ويوجه السوق عند السلطان ويستنزل للسلطان نصيحة السوق ويكسب الصديق وينفي العدو"^(٢٠).

هذا مقام العقل عند ابن المقفع فهو السبيل للأدب والتعلم والمكانة، ويرى ابن المقفع أهمية العلم الذي يضيف عليه أصحاب الفكر بصمات مهمة فقال: "لا ينبغي للمرء أن يعتد بعلمه ورأيه مالم يذاكره ذوو الأبواب ولم يجامعوه عليه فإنه لا يستكمل علم الأشياء بالعقل الفرد"^(٢١).

(٢٢) ينظر، الأوقاف والشئون والمقدسات الإسلامية، مجلة هدى الإسلام، من وحي العقل، عقل عبد الله بن المقفع، ١٩٦٢م، (٥٦٣١).
(٢٣) السابق (٥٦٣٢).

(٢٠) ابن المقفع، الأدب الصغير ص ٢٩١، ضمن آثار ابن المقفع طبعة دار الكتب العلمية.
(٢١) السابق (٢٩٦).

الوعي. والتعهد لما اختير واعتقد. ووضع ذلك موضعه قولاً وعملاً^(٢٨).

"وليعلم أن على العاقل أموراً إذا ضيعها حكم عليه عقله بمقارنة الجهال. فعلى العاقل أن يعلم أن الناس مشتركون مستوون في الحب لما يوافق والبغض لما يؤذي، وأن هذه منزلة انتق عليها الحمقى والأكياس، ثم اختلفوا بعدها في ثلاث خصال، هن جماع الصواب وجماع الخطأ، وعندهن تفرقت العلماء والجهال والحزمة والعجزة"^(٢٩).

ومن ولعه بالتقسيم، تقسيم عمل الفرد في يومه لينتفع بالوقت، يقول: "وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على نفسه ألا يشغله شغل عن أربع ساعات: ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يُفضي فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه في أمره، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل"^(٣٠).

ويوضح بتفصيل محدّد أركان عمل الأمير: "وعلى الوالي أربع خصال هي أعمدة السلطان وأركانه التي بها يقوم وعليها يثبت: الاجتهاد في التخير، والمبالغة في التقدم، والتعهد الشديد، والجزاء العتيد"^(٣١).

تؤيد هذه النصوص أن ابن المقفع كان يتناول النقاط التي يعبر عنها بعقله فينزع إلى تقسيمها، وتحديدتها، إنه ليس عشوائياً الطرح بل أدبه منظم دقيق مفصّل

وإما رجلاً كارهاً، فالكاره عامل في سُخْرَةٍ، إما للملوك إن كانوا هم سلكوه، وإما لله إن كان ليس فوقه غيره^(٢٤).

ويقول: "اعلم أن الملك ثلاثة: مُلْكٌ دين، وملك حَزْمٍ، وملك هَوًى"^(٢٥).

"واعلم أن العلم علمان: علم للمنافع. وعلم لتزكية العقول، وأفشى العلمين وأجداهما أن ينشط له صاحبه من غير أن يُحَرِّضَ عليه علم المنافع، وللعلم الذي هو ذكاء العقول وصقالها وجلالها فضيلة منزلة عند أهل الفضل في الألباب"^(٢٦).
والجملة الأخيرة دالة على الرؤية العقلية، فبعد تقسيمه للعلم، لم يكتف بأن العلم في ذاته شريف بل ارتفع منزلة ليُجعل المنزلة الأولى للعلم الذي يكشف ويجلو ذكاء العقول، ويرفعها لا بين العامة فحسب؛ بل بين أولى النُهي، وربما يقصد بهذا العلم الفلسفة أو المنطق، وهما علما العقل، ويدعم هذه الرؤية قائلاً: "وجلُّ الأدب بالمنطق وكل المنطق بالتعلم ليس حرفاً من حروف نعجمه، ولا اسماً من أنواع أسمائه إلا وهو مروي متعلم"^(٢٧).

ويعطي نصائحه للاهتمام بالعقل وتدعيم التعقّل، فيقول: "وإنما إحياء العقل الذي يتم به ويستحكم خصال ست: الإيثار بالمحبة. والمبالغة في الطلب. والتثبت في الاختيار. والاعتقاد للخير. وحسن

(٢٤) ابن المقفع، الأدب الكبير (٢٤٧)، ضمن آثار ابن المقفع طبعة دار الكتب العلمية.

(٢٥) السابق (٢٥٠).

(٢٦) السابق (٢٦٨).

(٢٧) ابن المقفع، الأدب الصغير (٢٨٣)، ضمن آثار ابن المقفع طبعة دار الكتب العلمية.

(٢٨) السابق (٢٨٤).

(٢٩) السابق (٢٨٥).

(٣٠) ابن المقفع، الأدب الصغير (٢٨٨).

(٣١) السابق (٢٨٩).

موضوعي؛ لخضوعها للعقل المسؤول عن عملية التنظيم والضبط.

٢- وضع قواعد فكرية: مما يكشف عن النظرة العقلية لابن المقفع صياغته لما أسماه قواعد فكرية عامة، فالنزوع نحو التجريد، وسن القوانين، أثر من آثار سيطرة العقل على الأديب والمفكر، ومن ذلك قوله: "فما كان من الأمر بُني على غير أركان وثيقة ولا عماد محكم أو شك أن يتداعى ويتصدع" (٣٢).

وقوله: "وإن كلمة واحدة من الصواب تصيب موضعها خير من مائة كلمة أمثالها في غير فرصها ومواضعها مع أن كلام العجلة والبدار موكل به الزلل وسوء التقدير، وإن ظن صاحبه أنه قد أتقن وأحكم" (٣٣).

وقوله: "ولا تخطن بالجد هزلا ولا بالهزل جدا فإنك إن خلطت بالجد هزلا هجنته وإن خلطت بالهزل جدا كدّرتة" (٣٤).

ومن جكمه: "فإن المعاييب تنمى والمعاذير لا تنمى" (٣٥).

ويقول: "واعلم أن الجبن مقتلة والحرص محرمة" (٣٦).

وكذلك: "أكثر الصواب في مخالفة الهوى" (٣٧).

و "تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام" (٣٨).

و"أشد الفاقة عدم العقل... ولا مال أفضل من

العقل" (٣٩).

و"العجب آفة العقل واللجاجة قعود الهوى" (٤٠).

وتعدّ حكم ابن المقفع من هذا القبيل، فهو يصوغ جملا تطول وتقصّر تنتنس بالحكمة التي اكتسبها وقدحتها قريحته الوقادة، وربما نجد بعض هذه المعاني متداولة ومتواردة لدى غيره وهذا يؤكد أنها بنت التجربة المتعقّلة، والفكر الإنساني المجرد.

٣- تغليب حكم العقل على الهوى: ومن مظاهر عقلانية ابن المقفع، أنه دائما ما يلجأ إلى عقله للحكم والنصيحة، ويطلب مجافاة حكم الهوى، يقول: "ولكن أن يكون للنفس غلوبا وللأمر محتلا وفي الضرر متحلا ولنفسه عند الرأي والحفاظ مرتبطا وللحزم مؤثرا وللهوى تاركا وللمشقة التي يرجو عاقبتها مستخفا، وعلى مجاهدة الأهواء والشهوات مواظبا ولبصره بعزمه منفذا" (٤١).

وليس أشد من مخالفة هوى الشهوة لغلبة العقل: "ومن العجب أن الرجل الذي لا بأس في لبه يرى المرأة من بعيد متلفعة في ثيابها، فيصور لها في قلبه الحسن والجمال حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر، ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأدم الدمامة فلا يعظه ذلك عن أمثالها ولا يزال مشغوبا بما لم يذق حتى لو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأنا غير شأن ما ذاق وهذا

(٣٢) ابن المقفع، الأدب الكبير (٢٥١).

(٣٣) السابق (٢٥٩).

(٣٤) السابق (٢٦٣).

(٣٥) ابن المقفع، الأدب الكبير (٢٦٦).

(٣٦) السابق (٢٧٥).

(٣٧) السابق، الصفحة نفسها.

(٣٨) السابق (٢٧٧).

(٣٩) ابن المقفع، الأدب الصغير (٢٩١).

(٤٠) السابق (٢٩٤).

(٤١) ابن المقفع، الأدب الكبير (٢٦٨).

تشتهي الطعان الذي فيه ضررها، وتعاف الدواء الذي فيه نفعها، والتأكيد على مخالفة النفس والنصح به وممارسته من شيم العقلاء الحكماء، والأدباء ذوي الإرادة والعزيمة.

٤- استطراد التقسيم العقلي للتفضيل بين الأقسام: ومن مظاهر النشاط العقلي المتتابع عند ابن المقفع استطراد التقسيمات التي يذكرها للأشياء بالتفضيل بين الأقسام كأنه لا يريد أن يبقى لعقل القارئ سؤالاً دون إجابة، فلهذا يجيب عن سؤال القارئ: وأي القسمين أفضل أو أولى؟ ومن ذلك: "عَوْدَ نفسك السخاء، واعلم أنهما سخاءان: سخاوة نفس الرجل بما في يديه. وسخاوته عما في أيدي الناس. وسخاوة نفس الرجل بما في يديه أكثرهما وأقربهما من أن تدخل فيه المفاخرة ما في أيدي الناس أمحض في التكرم وأنزه من الدنس، فإن هو جمعهما فبذل وعفّ فقد استكمل الجود والكرم" (٤٧).

٥- النزعة العملية: من سمات عقلية ابن المقفع في أدبه خاصة في حديثه عن العلاقة مع الآخرين تلك النزعة العملية، وهي عقلية بوضوح؛ لأنها بحث عن عواقب الأمور، ومن ذلك قوله: "إن أردت أن تكون داهيا فلا تحبّ أن تسمى داهيا، فإنه من عرف بالدهاء خاتل علانية وحذره الناس حتى يمتنع منه الضعيف، وإن من إرب (٤٨) الأريب دفن إربه ما

هو الحق والشقاء" (٤٢). وابن المقفع هنا يحلل بوعي اجتماعي أصيل واحدة من أغلب الشهوات الإنسانية، فيكشف عن ذهن وقاد نفاذ لأصول علل الأشياء، مفكر مديم النظر إلى أعماق الأفكار.

ويقول: "وعلى العاقل مخاصمة نفسه ومحاسبتها والقضاء عليها، والإثابة لها والتنكيل بها" (٤٣). وأيضاً: "وعلى العاقل أن يحصي على نفسه مساويها في الدين وفي الرأي وفي الأخلاق وفي الآداب فيجمع ذلك كله في صدره أو في كتاب، ثم يكثر عرضه على نفسه ويكلفها إصلاحه" (٤٤). وهذا منه من أجل تقويم النفس، وتثبيتها على جادة الصواب، وإبعادها عما يشينها من الصفات والفعال، ويعتقد أن هناك تباعداً بين الرأي والهوى، فيقول: "وعلى العاقل أن يعرف أن الرأي والهوى متعاديان وأن من شأن الناس تسويق الرأي وإسعاف الهوى، فيخالف ذلك ويلتمس أن لا يزال هواه مسوّفاً ورأيه مسعفاً" (٤٥). فلا بد من مخالفة الهوى، فالنفس تميل لما يريحها وتشتهيه وإن كان فيه ما فيه، ولذلك فقد مارس ابن المقفع مخالفة الهوى بنفسه، وصدّق بفعله قوله، يقول: "قلما كان الرأي لي خصماً تتكبت الوقوع في خلافه، فلم أجد إلا الإذبار عن إقبالك سبيلاً، ولا مع ذلك في طاعة الشوق حجة فتغيب السبيل" (٤٦).

وأخيراً فإن مخالفة هوى النفس فيه النجاة، فالنفس قد

(٤٢) السابق (٢٧١).

(٤٣) ابن المقفع، الأدب الصغير (٢٨٦).

(٤٤) السابق (٢٨٧).

(٤٥) السابق (٢٨٩).

(٤٦) ابن المقفع، الآثار الأخرى (٣٤٠).

(٤٧) ابن المقفع، الأدب الكبير (٢٦٨).

(٤٨) الإرب: الحاجة، والدهاء والفتنة، والعقل، والعضو الكامل. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ٢٠٠٤م، مكتبة الشروق الدولية، (١٢).

استطاع حتى يعرف بالمسامحة في الخليفة والاستقامة في الطريقة، ومن إربه ألا يؤارب العاقل المستقيم له الذي يطلع على غامض إربه فيمقته عليه^(٤٩). وليس أكثر عملية من تلك النصيحة التي ربما يظهر صداها في العصر الراهن عند الكثيرين، وهو تفكير عقلي عملي نفعي بامتياز.

"وتتظر عند كل عيب تراه أو تسمعه لأحد من الناس، هل قارفت مثله أو مُشاكَلَه، فإن كنت قارفت منه شيئاً فأحصه فيما تحصي على نفسك، حتى إذا أحصيت ذلك كله، فكابر عدوك بإصلاح عيوبك وتحصين عوراتك وإحراز مقاتلك، وخذ نفسك بذلك ممسياً مصباحاً"^(٥٠). فالعملية النفعية المتعلقة تقتضي ألا تسلم للآخرين بعيوبك فيحصوها عليك ويكسروا أنفتك بها، ولكن لا تستسلم لغرور الإنكار، فإن عيوب النفس ضعف يجب إصلاحه، وكسر يجب جبره، فتتقوى على مواجهة أعدائك بحفظ الظاهر وإصلاح الباطن. إن ابن المقفع ذكي عاقل واعٍ يقدر الأمر من زاويته، وربما كان نفعياً بوجه ما.

ويذهب الفكر العملي والرغبة في الاستعداد لكل فجأة أن ينتبه الإنسان أن يباغت بشيء لا يحب ظهوره، فيبدو تغير في ملامحه يكشف دخيلة نفسه، فعليه أن يبدو ثابتاً رصيناً وإن حدث ذلك حتى لا تفضحه عيناه، يقول: "اعلم أنه كلما بُدِه أحد بشيء يعرفه من نفسه، وقد كان يطمع في إخفائه عن

الناس فيُعَيَّرُهُ به معيّر عند السلطان أو غيره إلا كاد يشهد به عليه وجهه وعيناه ولسانه للذي يبدو منه عند ذلك، والذي يكون انكساره وفتوره عند تلك البداة فاحذر هذه وتصنع لها وخذ أهبتك لبغثاتها"^(٥١).

ومن أكثر الأمور عملية وأهمية في حياة الإنسان تدبير أمور حياته، وتلك لا يحسنها إلا العقلاء، يقول ابن المقفع: "ومن أحسن ذوي العقول عقلاً مَنْ أَحَسَّ تَقْدِيرَ أَمْرٍ مَعَاشِهِ وَمَعَادَهُ تَقْدِيرًا لَا يَفْسُدُ عَلَيْهِ وَاحِدًا مِنْهُمَا الْآخَرُ، فَإِنْ أَعْيَاهُ ذَلِكَ رَفُضَ الْأَدْنَى وَآثَرَ عَلَيْهِ الْأَعْظَمَ"^(٥٢).

وفي نصيحة مخصصة لأmir المؤمنين عن الجند، وأمور تنظيمهم ومعاملتهم مع الناس، يكتب بعقل يقظ حلاً لهذه المشكلة، يقول: "قلو أن أمير المؤمنين كتب لهم أماناً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شيء يجب أن يعملوا فيه أو يكفوا عنه بالغاً في الحجة قاصراً عن الغلو يحفظه رؤسائهم حتى يقودوا به دهماءهم، ويتعهدوا به منهم من لا يؤبه له من عرض الناس لكان ذلك إن شاء الله لرأيهم صلاحاً، وعلى من سواهم حجة وعند الله عذراً"^(٥٣).

ينطلق ابن المقفع برؤية عقلانية للأمور ويقدم في رسائله وكتابات الأدبية أفكاراً عملية نافعة وتلك سمة الأديب المفكر، الذي لا يشكل الأدب له متعة فنية فحسب، بل أيضاً رؤية واقعية، وهنا تظهر القيمة

(٥١) السابق (٢٧١).

(٥٢) ابن المقفع، الأدب الصغير (٢٩٧).

(٥٣) ابن المقفع، رسالة في الصحابة (٣١١).

(٤٩) ابن المقفع، الأدب الكبير (٢٧٠).

(٥٠) السابق، الصفحة نفسها.

النفعية للأدب.

٦- استنفاد طاقة العقل في الاستدراك: يصوغ العقل قوانينه، ويستقرئ الواقع فإن شذ عن قوانينه شيء استثناه، عن تجربة محكمة ونظر بصير، وقد كان ابن المقفع يفعل ذلك فيما يقدمه من أدب، ومن ذلك: "اعلم أن بعض شدة الحذر عونٌ عليك فيما تحذر، وأن شدة الاتقاء تدعو إليك ما تتقي" (٥٤). وهذه دعوة لبقة للتوسط والاعتدال، وعدم ترك هاجس الحذر يتملك من الفرد ويصيبه من حيثما يأمن، ومن ذلك أنه جعل الرأي لولاة الأمر وليس للناس "ثم جعل ما سوى ذلك من الأمر والتدبير إلى الرأي، وجعل الرأي إلى ولاة الأمر ليس للناس في ذلك الأمر شيء إلا الإشارة عند المشورة والإجابة عند الدعوة والنصيحة بظهر الغيب، ولا يستحق الوالي هذه الطاعة إلا بإقامة العزائم والسنن مما هو في معنى ذلك" (٥٥). فابن المقفع يقيم القانون ويستثني ما يقيم أود القانون ويجعله قائما، ويسد الباب على أي سؤال، إنه يكتب بعقله قبل قلمه، فهو رجل حكيم جاد عقله بالفكر والرؤية في كتاباته، يقول خليل مردم: "جمع ابن المقفع بين عقل الحكيم وتفكيره وطبع الأديب وذوقه، فليست حكمته حقائق عارية، وليس أدبه، من هواجس النفس ونزعات الأهواء، وإذا حاولنا عزل حكمته عن عاطفته، وجدناها حكمة مشرقية، وأعني بذلك أنها غير مادية بل هي في كثير من نواحيها

روحية مبنية على الرحمة وحب الخير وبث الفضيلة ومساعدة الناس، فالحقيقة عنده مرغوب فيها ما نفعت أو ما كان نفعها أكثر من ضررها، فإذا كان تمحيصها يؤدي إلى تعاسة أو بؤس فالأفضل أن يُعقل أمرها أو يحول ضررها إلى منفعة، وهذا النوع من حكمة المتفائلين أقرب إلى علم تهذيب الأخلاق منه إلى الفلسفة الخالصة" (٥٦)، ولعل هذا يثبت أن حكم ابن المقفع ليست بعيدة عن الواقع بل هي معالجة حقيقية لكثير من قضايا ومساائل الحياتية، وفيها النفع والفائدة العملية.

المبحث الثاني: تجليات العقل عند الجاحظ.

إن الجاحظ ليظهر عقله في رسائله الأدبية في الطريقة التي يطرح بها رأيه في موضوعاتها، ويظهر في رسائله السياسية في كونه رجلا عمليا واقعيا، أما في رسائله الكلامية فهو فيلسوف متكلم بحق، وفي كل فهو عاقل متعقل.

يقول الجاحظ عن نفسه: "وأنا -مد الله في عمرك- رجل من أهل النظر ومن جمال الأثر، ولا أكمل لكل ذلك ولا أفي إلا أني في سبيل أهله وعلى منهاج أصحابه" (٥٧).

وقد كان الجاحظ أحد نوادر الزمان حبا للعلم والمطالعة والأخذ بكل فنون عصره، والتزود بالعلم تعلمًا على أيدي العلماء واجتهادا في قراءة الكتب،

(٥٦) ينظر، ابن المقفع، الجزء الثاني، مؤسسة هنداوي سي أي سي، ٢٠١٧م، (٣٧).

(٥٧) الجاحظ، عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق د. علي بو ملحم، ٢٠٠٢م، طبعة الخيرة، بيروت، دار الهلال (٢٤٨).

(٥٤) ابن المقفع، الأدب الكبير (٢٧٧).
(٥٥) ابن المقفع، رسالة في الصحابة (٣١٣).

ترك العين، وذهب إلى ما يريد العقل^(٦١)؛ لأن العين تخدع والعقل يقود إلى الحكمة والصواب. ويقول أيضا: "وليس الشأن فيما يظهر اللسان من الشك والتجوز له، ولكن ليرده إلى العقل، فإنه سيجده منكرا ونافيا له إذا كان العقل سليما من آفة المرض ومن آفة التخيل"^(٦٢).

ويحدد وظيفة العقل، فيقول: "فلَمْ أعطاه العقل إلا للاعتبار والتفكير"^(٦٣).

بل العقل مناط التفاضل بين الناس: "والفرق الذي هو الفرق إنما هو الاستطاعة والتمكن. وفي وجود الاستطاعة وجود العقل والمعرفة... وإنما الشأن في العقل والمعرفة والاستطاعة"^(٦٤)، فالعقل إذن هو الضابط الأساس والمعياري في التفاضل بين الناس، بشأن القبضة على الخلافة والتمكن.

ومن تمييز رؤية عقلانية الإنسان عند الجاحظ رفضه التقليد، وغلق باب التفكير، يقول: "وقد قالوا: ليس مما يستعمل الناس كلمة أضر بالعلم والعلماء ولا أضر بالخاصة والعامة من قولهم: ((ما ترك الأول للأخير شيئا))"^(٦٥)، فهذه دعوة من الجاحظ إلى ضرورة الإقلاع عن التفكير والأخرى أن السابق لم يترك لاحقا شيئا. وتلك خدعة لا يقبلها العقل، لأن الإنسان المبدع هو المجدد في كل الأمور، وليس المقلد لها والمكرر.

وهو معدود من كبار المعتزلة، ويكفي أن ننقل ما أورده صاحب معجم الأدباء قائلا: "كان واسع العلم بالكلام كثير التجرب فيه شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا... والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور"^(٥٨).

ويمكن أن نستجلي السمات العقلية عند الجاحظ -مع التسليم بعدم الإحاطة بكل مؤلفاته- في العناصر التالية:

١- **الإنسان متميز بالعقل**: إن أهم ما يميز الإنسان هو العقل، ولذا يؤكد هذا الأمر الجاحظ قائلا: "ثم جعل الإنسان ذا العقل والتمكن"^(٥٩)، لقد ربط التمكن في الأرض بالعقل؛ لأن الثبات في الأمر يحتاج إلى قرار حكيم، وهذا يصدر عن العقل والبصيرة.

والعقل هبة ونعمة من الله للإنسان: "والإنسان الذي جعله الله تعالى فوق جميع الحيوان في الجمال والاعتدال وفي العقل والكرم ذو شعر"^(٦٠).

ولذلك مناط الحكم على الأمور هو العقل الذي يقبل ويرفض عن وعي وفكر، يقول: "فلا تذهب إلى ما

(٥٨) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق د. إحسان عباس، ١٩٩٣م، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ٢١٠٢/٥، وينظر فصل (مناهل فكر الجاحظ) د. علي أبو ملح، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ٢٠٠٢م، طبعة الخيرة، بيروت، مكتبة الهلال، ٧٩ - ١١٨.

(٥٩) الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ١٩٦٥م، الطبعة الثانية، القاهرة، مصطفى البابي الحلبي (٣٦/١).

(٦٠) السابق (٤٨٤/٥).

(٦١) السابق (٢٠٧/١).

(٦٢) الجاحظ، الحيوان (٣٧٩/٣).

(٦٣) السابق (٥٤٣/٥).

(٦٤) السابق (٥٤٣/٥) بتصرف.

(٦٥) الجاحظ، الرسائل الأدبية (٢٣٢).

والتفكير والتحليل هو ما يجعل الإنسان (فاضل العقل على قوى الشهوات). ويردف الجاحظ ذلك بتحليل قيم، في قوله: "وذلك أنه لا شيء أصعب من مكابدة الطباع، ومغالبة الأهواء، فإن الدولة لم تنزل للهوى على الرأي طول الدهر... وإنما سمي العقل عقلا وحجرا... لأنه يزم اللسان ويخطمه"^(٦٨)، يركز الجاحظ على مسألة تحكيم العقل بعيدا عن هوى النفس التي تذهب بالنفس كل مذهب وتبعدها عن جادة الحق والصواب.

وفي الحكم على الرجل بالكرم يقول: "ولست أسميه بكثرة معروفه كريما حتى يكون عقله غامرا لعلمه، وعلمه غالبا لطبعه، وحتى يكون عالما بما ترك، وعارفا بما أخذ، واسم الحليم جامع للكظم، والقدرة والفهم"^(٦٩)، وفي هذا درس وحكمة على أن تسمية الأمور تخضع للبعد العقلي الذي لا يخدع، فيما تخدمه العاطفة والهوى.

ولابد من تعهد العقل: "وما أشك أن العقل حين يطلق من إيساره كالمقيد حين يُفك من قيوده، يمشي كالنزيه، ويحجل كالغراب، فإذا وجب عليك أن تحذر على عقلك مخامرة داء الغضب بعد تخلصه، وأن تتعمده بالعلاج بعد مباينته له وتخلصه من يده فما ظنك به وهو أسير في ملكه، وصريع تحت كلكه، وقد غطه في بحره وغمره بفضل قوته"^(٧٠).

ومن تغليب العقل على الهوى أن يكون الإنسان

ومن مميزات عقل الإنسان تتبعه للحجة، يقول الجاحظ: "والحاكم العادل من لم يعجل بفصل القضاء دون استقصاء حجج الخصماء ودون أن يحول القول فيمن حضر من الخصماء والاستماع منه وأن تبلغ الحجة مداها من البيان، ويشترك القاضي الخصمين في فهم ما اختصما فيه"^(٦٦)، يدعو الجاحظ إلى مسألة التثبت في إصدار الأحكام، وذلك بالاستماع إلى الخصمين، ومن خلال بيان رأيهما تثبت الحقيقة.

هذه رؤية أصيلة في أن العقل منطلق التفكير والرأي عند الجاحظ، وهي نصوص دالة على مكانة العقل ومنزلته لديه، فليس بعد غريبا أن يتجلى العقل في مؤلفاته.

٢- تغليب حكم العقل على الهوى: في تحليل الأديب للأمر وفي إعطائه للنصائح قد ينجح إلى مخاطبة العاطفة وقد يصدر عنها، أو يكتفي بالاستدلال الديني، لكن الأديب المنطلق من الرؤية العقلية يحرص أن يقدم العقل على الهوى، بل يجعل دائما مبرراته عقلية، ويتضح هذا في نصوص الجاحظ، يقول: "والحرص على الممنوع باب لا يقدر على الاحتجاز منه والاحتراس من خدعه إلا كل مبرز في الفطنة ومتمهل في العزيمة طويل التجارب فاضل العقل على قوى الشهوات"^(٦٧). فالعقل وحده، والنفاد به إلى تفتيت شهوات النفس على صخرة

(٦٨) الجاحظ، الرسائل الأدبية (٨٨-٨٩) بتصرف.

(٦٩) السابق (٣٣١).

(٧٠) السابق (٣٤٩).

(٦٦) الجاحظ، الرسائل الكلامية (٦٤).

(٦٧) الجاحظ، الحيوان (١٦٨/١).

عمليا في الحياة لا يتبع عاطفته بل عقله، يقول الجاحظ: "فقال بشر: إني مستعمل في عدوي قول القائل:

وعاد إذا عاديّ بالحزم تنل ظفرا ممن تريد وتغلب والنهي

فكان بهذا ممن يرى المعادة بالحزم ويغتها بالعقل والتأني" (٧١).

٣- الاستدلال العقلي على القيم: يدعم الجاحظ دائما آراءه في القيم والعلاقات الاجتماعية بالاستدلالي والإقناع العقلي، ولذا يوضح أن ثمرة إيضاح الحجة جني ثمرة الصواب، يقول: "ولو اقتصرنا في هذا الكتاب على حرف مما فيه، لكان بإذن الله كافيا لمن له لبّ وعقل، لكن الاحتجاج أوكد، والإيضاح أبلغ، والحظ في هذا القول كَلِّه لمن عقله والآخذ به أوفر منه لمن قاله ولم يعمل بقوله؛ لأنه إنما يجتبي ثمرة الصواب، ويختلف برفقه من صدّق قوله بفعله" (٧٢). وربما جادل الجاحظ مخاطبه في إطار طرحه العقلي، يقول: "ولعلّ قائلًا أن يقول: لو كان اسم المتكبر قبيحا ولو كان الكبر مذموما لما وصف الله تعالى بهما نفسه، ولما نوّه بهما في التنزيل حين قال: {الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ} [الحشر: ٢٣] ... قلنا لهم: إن الإنسان المخلوق المسخر والضعيف الميسر لا يليق به إلا التذلل ولا يجوز له إلا التواضع، وكيف يليق الكبر بمن إذا جاع صرع، وإن شبع طغى؟ وما يشبه الكبر بمن يأكل ويشرب

ويبول وينجو... فإذا كان الكبر لا يليق بالمخلوق فإنما يليق بالخالق، وإنما عاند الله تعالى بالكبر لتعديّه طوره، ولجهله لقدره، وانتحاله ما لا يجوز إلا لربه" (٧٣). يضع الجاحظ المقاييس والضوابط للكلمات وسياقاتها، فإذا كانت كلمة ما نابية في موقعها لارتباطها بمن لا يستحقها، فإنها موافقة وملائمة في سياق آخر مع من يستحقها.

ويقول أيضا وهو من الحكمة الصحيحة فأقدار الناس ومنازلهم لا يجب أن تخضع للهوى، وإلا انهارت القيم: "فاعرف لأهل البلاء... أقدارهم ومنازلهم، ثم لتكن أمورك معهم على قدر البلاء والاستحقاق ولا تؤثر في ذلك أحدا لهوى فإن الأثرة على الهوى توجب السخط" (٧٤).

إن القيم التي يدافع عنها بالحجة أوقع في النفس من تلك التي يدافع عنها بإلف العادة، وفعل العامة من الناس، إذ تفقد الثانية قناعتها والإيمان بها، وانظر إلى دفاعه عن التواضع ضد الكبر فقد خلط العقل بالإيمان في مزيج رائع وافٍ دفاعا عن القيم.

٤- التبرير العقلي للأمور: حين ينطلق الأديب أو المفكر في رؤاه من التفكير العقلي يبرز ذلك في تحليله للأمور وتبريره لها بل قد يسبر أغوار النفس الإنسانية بثاقب فكره، يقول الجاحظ: "إن الله تبارك وتعالى جعل لكل نفس مبلغا من الوسع لا يمكنها تجاوزه، ولا تتسع لأكثر منه، فكان معها فيما دون

(٧١) الجاحظ، الرسائل الأدبية (٣٨١).

(٧٢) السابق (١١٠).

(٧٣) السابق (١٣٥).

(٧٤) الجاحظ، الرسائل السياسية (٧٥).

المعلمين وهجوتهم، وحفظت مساوئهم وتناسيت محاسنهم واقتصرت على ذكر مثالب الأعلام والجلّة حتى صوّب نفسك عند السامع لكلامك والقارئ كتابك أنك ممن ينكر الحق جهلاً، أو يتركه معاندة له، وقد علم الناس أن من تركه جهلاً به أصغر إثماً ممن تركه عمداً^(٧٨).

ويقول مدافعاً عن الكلام في مقابلة الصمت: "ولم أجد للصمت فضلاً على الكلام مما يحتمله القياس؛ لأنك تصف الصمت بالكلام ولا تصف الكلام به، ولو كان الصمت أفضل والسكوت أمثل لما عرف للأدبيين فضل على غيرهم، ولا فَرَقَ بينهم وبين شيء من أنواع الحيوان وأخفاف الخلق"^(٧٩). وهذا وإن بدا ترفاً عقلياً فلكل من الصمت والكلام مقامه وكل منهما محمود ذاتاً وفي مقامه الصحيح، ولا يعقل ذم الكلام في ذاته أو الصمت كذلك، ولكن ذلك أصل أصيل من العقلية الحجاجية التي يتمتع بها الجاحظ، والتي ما تقتأ حتى تستدل بكل برهان على صوابية ما تذهب إليه، وهذا أهم معضلات النزعة العقلية الإنسانية ما لم يهذبها تدين معتدل.

٥- النزوع نحو التقسيم: ومن مظاهر التفكير العقلي، تقسيم الأمور حسب نظر العقل، فالأديب المفكر ما يتعرض لشيء إلا ويحلله، ويفصله، ويقدمه مقسماً موضحاً، ومن ذلك: "ولم يستحكم له عقده (السيادة والتحلُّم) إلا بعد ثلاثة أشياء:

الوسع الفقر وخوف الإخوان، وفيما تجاوزه عز الغنى وأمن العدم، وبهذا وبمثله من البخل والحرص استخفت من احتاج إليها وأعظمت من استغنى عنها، وجعلها نواقية مشتاقة متطرفة ملّالة"^(٧٥). إنه فكر ثاقب محلل واعي لا يطلق حكماً جزافاً بل يتعمق ليصل إلى الحقيقة.

ويقول: "وقيل: اثنان منهومان: طالب علم وطالب دنيا. وهذه القضية تدل على الخروج عن العقل؛ لأن النهم تجاوز القدر. وأما الحرص على الممنوع الذي لا ينتفع به، والعجب مما يتعجب من مثله، فليس من أخلاق العقلاء، وما لم يكن في أخلاقهم فلا نظر فيه، ولا قياس عليه وإنما ذلك فعل من استوحش من الحجة وشرّد عن علم العلل والأسباب"^(٧٦). فمن ابتغى العلة الصحيحة وانتفع بعقله مفكراً وصل للصواب في الأمور.

وقد يستعمل مصطلحات المنطق العقلي في تبرير قوله، يقول: "ودعني من قول من يقول: قد كانت قریش تجاراً؛ فإن هذا باب لا ينقاس ولا يطرد. ومن قاس تجار الكرخ وباعته، وتجار الأهواز والبصرة على تجار قریش فقد أخطأ القياس وجهل أقدار العلل"^(٧٧).

ويُخَطِّى التعميم لأنه غير صائب "وقد رأيتك - حفظك الله - خوَّنت جميع الوكلاء، وفجَّرتهم، وشنَّعت على جميع الوراقين وظلمتهم وجمعت

(٧٨) السابق (٢٢٨-٢٢٩-٢٣٠). ويقول: "وليس شيء من الدنيا يكون

نفعه محضاً وشره صرفاً" (٢٣١).

(٧٩) الجاحظ، الرسائل الأدبية (٣٠١).

(٧٥) الجاحظ، الرسائل الأدبية (٩٨).

(٧٦) السابق (١٠٠).

(٧٧) الجاحظ، الرسائل الأدبية (٢٠٩).

دونك. والصدق صدقان: أعظمهما صدقك فيما يضررك. والوفاء وفاءان: أسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه.^(٨٤)

وكما ذكرت آنفا فالشخصية الأدبية المفكرة التي تعتمد على العقل، لتحلل الأمور وتقسّمها ولا تأخذها كلية مجمعة، ومن هنا يكثر التقسيم في كلامها، فهي لا تقدم خطبا ونصائح عامة، فلو كان ما خط هذه النصوص غير الجاحظ مثلاً؛ لتحدث عن فضيلة الصبر وخبث الجبن الخ..، لكن الجاحظ يقدم أفكاره مفصلة، ولكل تفصيل منها حكمه.

٦- الاعتقاد بالمبادئ العقلية: المبادئ العقلية أو البديهيات^(٨٥) أو المسلمات، هي قضايا يمكن تصديقها بمجرد سماعها، ويتضح ذلك في كلام الجاحظ، فمن ذلك الإقرار بقانون السببية مثلاً، يقول: "إن الفروع [لا] محالة راجعة إلى أصولها، والأعجاز لاحقة بصدورها، والموالي تبع لأوليائها، وأمور العالم ممزوجة بالمشاكلة ومنفردة بالمضادة، وبعضها على لبعض، كالغيث علة السحاب، والسحاب علة الماء والرطوبة، والحب علته الزرع، والزرع علته الحب، والدجاجة علته البيضة،

الاحتمال، ثم الاعتياد، ثم ظهور طاعة الرجال"^(٨٥)، ثم يعمد إلى تقسيم العلوم.

ويقول: "ثم إنا وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة المحيطين بالأمور معرفة ذكروا أن أصول الآداب التي منها يتفرع العلم لذوي الألباب أربعة: فمنها النجوم وبروجها ... ومنها الهندسة وما اتصل بها ... ومنها الكيمياء والطب ... ومنها اللحون ومعرفة أجزائها وقسمها"^(٨٦).

كما يقسم خصال اللسان إلى عشر ومنه: "قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله فقلت له: يا أمير المؤمنين، في اللسان عشر خصال: أداة يظهر بها النيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وحاكم يفصل بين الخطاب، وناطق يرد به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الأشياء، وواعظ يعرف به القبيح، ومُعزّز يُردُّ به الأحزان، وخاصة يزهي بالصنعة، ومُلهٍ يُوقن الأسماع"^(٨٧).

كما يقسم الجبن إلى صنفين "واعلم أن الجبن جبنان والشجاعة شجاعتان، وليست تكون الشجاعة إلى في كل أمر لا يدرى ما عاقبته يُخاطر فيه بالأنفس والأموال"^(٨٨).

ويقسم الصبر إلى صبرين، يقول: "والصبر صبران: فأعلاهما أن تصبر على ما ترجو فيه الغنم في العاقبة. والحلم حلمان: فأشرفهما حلمك عمن هو

^(٨٤) السابق (٨٦).

^(٨٥) البديهية: "قضية في أي نظرية علمية مبنية على نحو تؤخذ معه هذه القضية كنقطة بداية لا يتعين إثباتها بالنسبة لهذه النظرية"، ينظر روزنتال، الموسوعة الفلسفية (٧٧). "تنتمي البديهية إلى مجالات المنطق والرياضيات، وفلسفة العلوم فضلاً عن الفلسفات القائمة على نسق استنباطي... والبديهية هي أول كل شيء كما تعني في الاستخدام اليومي الشائع إما المبدأ والقاعدة التي يتفق عليهما لقيمتها الذاتية أو القضية التي تعد حقيقة بينة بذاتها، ولا يختلف استخدامها الاصطلاحي كثيراً عن هاتين الدالتين". معن زيادة وآخرون، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، (١٩٢).

^(٨٥) السابق (١٣٤).

^(٨٦) الجاحظ، الرسائل الأدبية (٢١٧).

^(٨٧) السابق (٣١٣).

^(٨٨) الجاحظ، الرسائل السياسية (٧٩).

وفرعه منه، ولا بد من التصادق في أصله، والتعارف في فرعه، فالعقل هو المستدل، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل، وكون الاستدلال مع عدم الدليل، والعقل مضمن والدليل مضمن بالعقل، ولا بد لكل واحد منهما من صاحب، وليس لإبطال أحدهما وجه مع إيجاب الآخر. والعقل نوع واحد والدليل نوعان: أحدهما شاهد عيان يدل على غائب، والآخر مجيء خبر يدل على صدق^(٩٠). واستعماله للبرهان والدليل، يقول: "والشاهد لقولي يلوح في وجوههم، والبرهان على دعواي ظاهر في شمائلهم، والأخبار مستفيضة والشهود متعاونة"^(٩١). الترتيب بين الأمور، يقول: "واعلم -أبقاك الله- أنا متى قدم المؤخر وأخرنا المقدم فسد النظام وذهبت المراتب"^(٩٢).

٧- النزعة العملية: من سمات العقل أنه عملي فيما يخص الحياة، ويجب أن يتبع ما ينفع ويتبع عما يضر، وهي نزعة عقلية تتجلى عند الجاحظ كما تجلت عند ابن المقفع، يقول الجاحظ بعدما أوضح أن الله جعل صلاح عباده في الترغيب والترهيب: "إذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلا بما وصفت لك من الرغبة والرغبة فأعجز الناس رأيا وأخطؤهم تدبيراً، وأجهلهم بمراد الأمور ومصادرها من أمّل أو ظن أو رجا أن أحداً من الخلق فوقه أو دونه أو من نظائره يصلح له ضميره أو يصح له

والبيضة علتها الدجاجة، والإنسان علتة الإنسان"^(٨٦). ومنه العقل سبيل الحكم على الأمور، يقول: "وكذلك الأمور الوهمية لا يقضى عليها بشهادة إحصار الأعين، ولو قضى عليها بها كان كل من رآها يقضي حتى النعم والحمير، يحكم فيها لكل بصير العين يكون فيها شاهداً وبصيراً للقلب، ومؤدياً للعقل ثم يقع الحكم من العقل عليها"^(٨٧). ورؤيته للجمال رؤية عقلية يقول: "وأنا مبين لك الحسن، هو التمام والاعتدال"^(٨٨). وعن المعرفة فقد أثبتتها بالحس والعقل وجعلها من كسب الإنسان، يقول: "فإذا كان درك الحواس الخمس إذا تقدمته الأسباب وأوجبته العلل فعل المتقدم فيه والموجب له، ودرك الحواس أصل المعرفة وهو المستشهد على الغائب والدليل على الخفي، وبعد صحته تصح المعارف وبعد فساده تقسد، فالذي تستخرجه الأذهان منه وتستشهد عليه كعلم التوحيد والتعديل والتجويز وغامض التأويل وكل ما أظهرته العقول بالبحث وأدركته النفوس بالفكر من كل علم وصناعة كالحساب والهندسة والصبغة والفلاحة أجدر أن يكون فعله والمنسوب إلى كسبه"^(٨٩). والحجة والاحتجاج من مبادئ العقل والعقلاء، وللجاحظ كلام عن الحجة يقول: "والحجة حجتان: عيان ظاهر، وخبر قاهر. فإذا تكلمنا في العيان وما يفرع منه فلا بد من التعارف في أصله

(٨٦) الجاحظ، الرسائل الكلامية (٦٥).

(٨٧) السابق (٧٤).

(٨٨) السابق (٧٥).

(٨٩) السابق (١١٠). وفصل الكلام في هذه المسألة.

(٩٠) الجاحظ، الرسائل الكلامية (١٢٨).

(٩١) الجاحظ، الرسائل الأدبية (٤١٤).

(٩٢) الجاحظ، الرسائل السياسية (١٠٠).

بخلاف ما دبرهم الله عليه فيما بينه وبينهم، فالرغبة والرغبة أصلاً كل تدبير وعليهما مدار كل سياسة عظمت أو صغرت." (٩٣).

وعن معاملة الإخوان يقول: "فاجعل العدل والنصفة في الثواب والعقاب حاكماً بينك وبين إخوانك" (٩٤).

ويقول كذلك: "وستجد فيمن يتصل بك من يغلبه إفراط الحرص وخُمياً الشَّرَه ولين جانبك له على أن ينقم العافية... فتلقاه لما تصنع به مستقلاً ولمعروفك مستصغراً... فاعرف طرائقهم وشيمهم وداوِ كل من لابد لك من معاشرته بالدواء الذي هو أنجع فيه، إن لنا فلينا، وإن شدة فشدّة فقد قيل في المثل:

من لا يؤدّبهُ الجَمِيـل
لـ ففي عقوبته صلاحه" (٩٥).

وفي التوسط في الأمور وعدم الجنوح والمغالاة والمبالغة من المبادئ العملية في الحياة، وأُسُها الحكمة والفضيلة العقلية التي هي توسط بين طرفين، يقول الجاحظ بعد ذكره لبعض الصفات كالتواضع والكبر والبخل والكرم ونحوها وما يترتب عليها: "ولكل شيء من هذا إفراط وتقصير، وإنما تصح نتائجها إذا أُقيمت على حدودها وبقدر ما يدخل فيها فيما يتولد منها... فالإفراط في الجود يوجب التبذير، والإفراط في التواضع يوجب المذلة... واحذر كل الحذر أن يخذعك الشيطان عن الحزم فيمثل لك التواني في صورة التوكل، ويسلبك الحذر، ويورثك الهوينا بإحالتك على الأقدار، فإن الله إنما أمر

بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم للقضاء بعد الإعذار" (٩٦).

ومن النصائح العملية التي تكشف عقلية الجاحظ نصحه في معاملة الصديق والعدو، يقول: "واعلم أن الذي تعامل به صديقك هو ضد ما تعامل به عدوك، فالصديق وجه معاملته المسالمة، والعدو وجه معاملته المداراة والمواربة، هما ضدان يتنافيان، يفسد هذا ما أصلح هذا" (٩٧).

ومن أجمل النصائح العملية احترام التجربة وخبرة الحياة، يقول: "والعقل المولود متناهي الحدود، وعقل التجارب لا يوقف منه على حد" (٩٨).

ولم يكن مع عمليته عقلياً صرفاً بل كان يُنزلُ واقع الناس منزلة جيدة، يقول: "وليس يحتج بهذا وشبهه إلا رجل جاهل بطبائع الناس وعلاهم" (٩٩). فالعقل الصرف ليس هو كل شيء بل لابد من مراعاة أحوال الناس، والطبيعة البشرية.

٨- الحجاج: من سمات الجاحظ العقلية الكاشفة عن تعمقه في علوم العقل الحجاج، وهو يدافع عن رأيه، ويرد على الآراء المخالفة له ويتبعها، ومن ذلك: "أما قولكم: إن الأنصار قالت لقريش والمهاجرين: منا أمير ومنكم أمير. فهذا إلى أن يكون حجة عليكم أقرب؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله لو كان أقام عليّاً وجعله خليفة ووصيا

(٩٦) الجاحظ، الرسائل السياسية (٧٧).

(٩٧) السابق (٨٢).

(٩٨) السابق (١٠١).

(٩٩) السابق (٢٦٤).

(٩٣) السابق (٧٤).

(٩٤) السابق (٧٥).

(٩٥) الجاحظ، الرسائل السياسية (٧٦).

على نفسك نواجم خواطرك، فقد أمكنت العدو من ربة عنقك...فتوقف عند العادة، واتهم النفس عند الاسترسال والثقة^(١٠٢).

وكذا الجاحظ يدعم رأيه بالحجة بعد الحجة ويستقصي أساليب الجدل، وخاصة في رسائله التي تحمل ذات الطابع الجدلي.

المبحث الثالث: موازنة بين ابن المقفع والجاحظ.

بعدما رصدنا تجليات العقل في نتاج كل من ابن المقفع والجاحظ، يمكن الآن عقد موازنة بين سمات العقل عند كل منهما، على النحو الآتي:

أولاً: الجاحظ عاقل بالفلسفة وابن المقفع بالحكمة العملية أكثر، فيمكن القول: إن الجاحظ أديب فيلسوف أو فيلسوف أديب، فهو مُلِّمٌ بالفلسفة وعلم الكلام، لكن ابن المقفع أديب حكيم مفكر.

فالجاحظ يتميز باشتهاره بمعرفة الفلسفة وعلم الكلام، فهو إلى الفلسفة أقرب من ابن المقفع، وقد شهد لنفسه، فقال: "وأنا -مدّ الله في عمرك- رجل من أهل النظر ومن جُمّال الأثر، ولا أكملُ لكِ ذلك ولا أفي إلا أني في سبيل أهله وعلى منهاج أصحابه"^(١٠٣). فقد "التقت في الجاحظ ثلاث مزايا: الموهبة الأدبية، والفضول العلمي، والفكر النير، ولذا يمكن عدّه أديبا وعالما وفيلسوفاً... أما ابن المقفع فجمع العلم والأدب والفلسفة"^(١٠٤).

ثانياً: رسائل الجاحظ الكلامية والسياسية من السهل

ونصّ على ذلك بغدير خم أو في بعض المغازي ما كان بلغ من حربهم وعنودهم أن يقولوا هذا الكلام، والإمام قائم الحجة معروف المكان. وكيف حاز أن يلغوا ذكره حتى لا يذكرونه في شيء من مخاطباتهم ومنازعاتهم إلا والقوم لم يكن عندهم فيه عهد ولا سبب، فهذه حجة قاطعة"^(١٠٠).

ويقول كذلك: "الذي رأينا من قلة مبالاتهم من إقامة المهاجرين كائنا من كان؛ لأن قولهم: منا أمير ومنكم أمير قول قوم كأنهم قالوا: لابد لنا معشر الأنصار من أكبر على حال، وأنتم بعد أعلم بشأنكم فأمرؤا عليكم من بدا لكم. وليس في هذا طعن على خاصة أبي بكر، كما أنه ليس فيه تأكيد لإمامته دون غيره"^(١٠١). والنص يمتد لأكثر من نصف صفحة أخرى يجادل فيه الجاحظ عن طرحه ورؤيته وهو جزء من جدل ممتد لصفحات.

ومن ذلك قوله، وقد سبق ذكره: "وقد رأيتك -حفظك الله- خوّنت جميع الوكلاء، وفجّرتهم، وشنّعت على جميع الوراقين وظلمتهم وجمعت المعلمين وهجوتهم، وحفظت مساوئهم وتناسيت محاسنهم واقتصرت على ذكر مثالب الأعلام والجلّة حتى صوّب نفسك عند السامع لكلامك والقارئ كتابك أنك ممن ينكر الحق جهلاً، أو يتركه معاندة له، وقد علم الناس أن من تركه جهلاً به أصغر إثماً ممن تركه عمداً... اعلم أنك متى تفردت بعلمك استرسلت إليه، ومتى انتمنت

(١٠٢) الجاحظ، الرسائل الأدبية (٢٢٨-٢٢٩) بتصرف.

(١٠٣) الجاحظ، الرسائل الأدبية (٢٤٨).

(١٠٤) علي بو ملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، (١٢٦).

(١٠٠) الجاحظ، الرسائل السياسية (٢٥٠).

(١٠١) السابق، (٢٥١).

جدا اكتشاف الحجاج فيها والحجاج مسألة عقلية، فالرسالة العثمانية من الرسائل السياسية مثلا وهي ممتدة لمائة صفحة كلها جدال عن تأييد خلافة أبي بكر الصديق. وكذا رسالته (الحكمين وتصويب علي بن أبي طالب في فعله). وهي من (ص ٣٣٧) إلى (ص ٣٩٩). وهي أيضا مليئة بالجدل عن تصويب موقف علي بن أبي طالب، ووجوه استحقاق الإمامة. وفي رسائله الكلامية رسالة (المسائل والجوابات في المعرفة) الكثير من الأدلة والاعتراضات، وكذا رسالة (استحقاق الإمامة) أيضا الكثير من الحجج والجدل في مسألة الإمامة.

والجدال الأمتع هو ما نقرأه في رسائله الأدبية، وربما يأتي ذلك من جهة موضوعات هذه الرسائل، ومن جهة أخرى أنه تشكل قدرة العقل في الاستدلال لما يفضل الجاحظ من أمور الحياة، وهذا ما نجده مثلا في رسالة (تفضيل النطق على الصمت) حيث عقد مقارنة بينهما وردَّ فيها على من يفضل الصمت على النطق. ورسالة (تفضيل البطن على الظهر) والتي ناصر فيها البطن، ومما يميز الرسائل الأدبية استدلاله بالشعر والحكم والأقوال والقرآن، وذهابه بالتفكير العقلي كل مذهب.

ثالثا: الجاحظ في نصوصه أكثر اعتمادا على أدلة العقل من تبرير وبرهان وتعليل..الخ، وابن المقفع أقرب إلى الحكيم المجرب.

رابعا: بمقارنة السمات العقلية التي رصدتها الدراسة عند كل من ابن المقفع والجاحظ يتضح بعض

التوافق، وبعض التمايز بين الأدبيين. فابن المقفع تجلّى عنده: (الطرح العقلي وتقسيم الأمور - وضع قواعد فكرية - تغليب حكم العقل على الهوى - استطراد التقسيم العقلي للتفضيل بين الأقسام - النزعة العملية - استنفاد طاقة العقل في الاستدراك). والجاحظ: (الإنسان متميز بالعقل - تغليب حكم العقل على الهوى - الاستدلال العقلي على القيم - التبرير العقلي للأمور - النزوع نحو التقسيم - الاعتقاد بالمبادئ العقلية - النزعة العملية - الحجاج) فالحكمة غالبا ما تتجلّى عند الحديث عن الأخلاق والقيم، ومعاملات الناس، والنصائح العملية وبعض النصائح السياسية..الخ، أما العقل الفلسفي الحجاجي يتجلّى في الآراء الكلامية والجدل السياسي وبعض مجادلات الجاحظ الأدبية التي يرد بها على معارضين له، وهذه مرحلة أعلى وأدخل في استعمال العقل من الحكمة العفوية.

خامسا: إذا استدعينا ما ذكر عند اختيار المنهج الموضوعاتي، حين حدد بعض الباحثين أسس المنهج الموضوعاتي في (الأنا المبدع - العلاقة مع العالم - الخيال وحلم اليقظة) حيث يشير بعض الباحثين إلى أن الأنا تتحقق حين يكشف العمل الأدبي عن ذات المبدع. والعلاقة مع العالم لخصاها فيما قاله جورج بوليه: ((قل لي كيف تقيم الصلات مع العالم الخارجي وسأقول لك من أنت)). والخيال في النقد الموضوعاتي علاقة تبادلية بين الكائن والموضوع، وبين العالم والوعي والمبدع وعمله

الإبداعي^(١٠٥).

وبتأمل في هذه الأسس في صورتها غير المعقدة، وبتأمل آخر لما تلمسناه لنكشف به العقل موضوعاً في كتابات الجاحظ وابن المقفع، مع النظر إلى نصوصهما التي استخدمتها مادةً علمية في البحث، وتلك التي أشر إليها، فنخلص إلى أن (العقل) موضوعٌ جليٌّ بما لا يدع الباحث يبحث عن استكشافه بل يوجه النظر مباشرة لاستشراق سماته ومظاهره وقيمه الفكرية والعملية المؤثرة في أدب ابن المقفع والجاحظ.

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى أن (العقل) عند كل من ابن المقفع والجاحظ موضوعٌ جليٌّ بما لا يدع الباحث يبحث عن استكشافه بل يوجه النظر مباشرة لاستشراق سماته ومظاهره وقيمه الفكرية والعملية المؤثرة في أدب ابن المقفع والجاحظ. وكان لتجلي العقل سمات استكشفت الدراسة منها ما وفق الله إليه، بعضها كان مشتركاً بين الأدبيين، وبعضها انفرد به الجاحظ لمكانته من الفلسفة وعلم الكلام.

لقد كان ابن المقفع أديباً حكيماً، أما الجاحظ فكان فيلسوفاً أديباً، وهنا يجتمعان ويفترقان أيضاً. ولقد تجلت مبادئ المنهج الموضوعاتي في نصوص الأدبيين.

وأبرز السمات التي تميز بها الجاحظ هي (الحجاج)

فالحجاج الناشئ عن العقل وسوق الأدلة والبراهين والعلل، والأقيسة أكثر وضوحاً عند ابن المقفع، ولا سيما في رسائله السياسية والكلامية.

المراجع والمصادر

- ١- ابن المقفع، عبد الله، آثار ابن المقفع، ١٩٨٩م، الطبعة الأولى بيروت، دار الكتب العلمية.
- ٢- أبو ملحم، علي، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ٢٠٠٢م، طبعة الخيرة، بيروت، مكتبة الهلال.
- ٣- إلرود إيش وآخرون، نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة د. محمد العمري، ١٩٩٦م، إفريقيا الشرق.
- ٤- أندرو بووي، الفلسفة الألمانية مقدمة قصيرة جداً، ترجمة محمد عبد الرحمن سلامة، ٢٠١٥م، الطبعة الأولى، القاهرة، مؤسسة هنداوي.
- ٥- إنريك أندرسون، مناهج النقد الأدبي، ترجمة د. الطاهر أحمد مكي، ١٩٩١/١٤١٢م، القاهرة، مكتبة الآداب.
- ٦- بونجي، ماريو، المادة والعقل، ترجمة صلاح إسماعيل، ٢٠١٩م، الطبعة الأولى القاهرة، المركز القومي للترجمة.
- ٧- الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ١٩٦٥م، الطبعة الثانية، القاهرة، مصطفى البابي الحلبي.
- ٨- الجاحظ، عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق د. علي بو ملحم، ٢٠٠٢م، الطبعة الأخيرة،

(١٠٥) ينظر رضوان جنيدي، ط.د عبد الحميد بيقه، النقد الموضوعاتي (٦٠٦).

بيروت، دار الهلال.

٩- جنيدي، رضوان، بيقه، عبد الحميد النقد، الموضوعاتي الأسس والإجراءات، ٢٠١٩م، مجلة آفاق علمية، المجلد ١١، العدد (٠٤).

١٠- الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، تحقيق د. إحسان عباس، ١٩٩٣م، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

١١- روزنتال، يودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، بيروت، دار الطليعة.

١٢- زيادة، معن وآخرون، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي.

١٣- سرجيو مورافيا، لغز العقل، ترجمة عدنان حسن، ٢٠٠٢م، دمشق، منشورات وزارة الثقافة.

١٤- السيد، محمد صالح محمد، مدخل إلى علم الكلام، ٢٠٠١م، القاهرة، دار قباء.

١٥- الشافعي، حسن محمود، المدخل إلى دراسة علم الكلام، ٢٠٠١م، الطبعة الثانية، باكستان، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية.

١٦- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق: أحمد فهمي محمد، ١٩٩٢/١٤١٣م، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتب العلمية.

١٧- شيا، محمد شفيق، في الأدب الفلسفي، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

١٨- صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، ١٩٨٢م،

بيروت، دار الكتاب اللبناني.

١٩- العثماني، راغب، من وحي العقل، عقل عبد الله بن المقفع، ١٩٦٢م، وزارة الأوقاف والشئون والمقدسات الإسلامية، مجلة هدى الإسلام، مج ٦، ع ٨.

٢٠- عمارة، محمد، مقام العقل في الإسلام، ٢٠٠٨م، الطبعة الأولى، القاهرة، نهضة مصر.

٢١- الكك، فكتور، ابن المقفع أديب العقل، ١٩٨٦م، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

٢٢- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ١٤٢٥/٢٠٠٤م، مكتبة الشروق الدولية.

٢٣- مجموعة من الكتاب، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة: د. رضوان ظاظا، ١٩٩٧م، عالم المعرفة، العدد (٢٢١).

٢٤- مردم، خليل، ابن المقفع، مؤسسة هنداوي سي آي سي، ٢٠١٧م.

٢٥- مكي، الطاهر أحمد، الأدب المقارن، أصوله وتطوره ومناهجه، ١٩٨٧م، القاهرة، دار المعارف.

٢٦- مندر، محمد، الأدب ومذاهبه، القاهرة، نهضة مصر.

٢٧- وجليسي، يوسف، مناهج النقد الأدبي، ٢٠٠٧م، ط أولى، الجزائر، جسور.

The mind between Ibn al-Muqaffa and al-Jahiz: A Comparative study in the light of the Thematic Approach

Dr. Ziad Ali Alharthi

Literature and criticism

*Assistant Professor, College of Science and Arts
Department of Islamic Culture and Language Skills
University of Jeddah, Jeddah*

Abstract.the research aimed a major goal which is to reveal the features of the mind of Ibn_Al-Muqaffa and Al-Jahiz through their writings. It is based on the thematic method and its basic principle (the ego, the relationship with the world, and the imagination), as well as and comparative method as a scientific tool for study and comparison. The research paper has covered several topics, including: the relationship of literature to philosophy, the mind in human thought, and the manifestations of the mind in both Al-Jahiz and Ibn Al-Muqaffa. The research was concluded with a study that balances the features of mind in each of them. Among the most prominent results of the research are the common features between Ibn Al-Muqaffa and Al-Jahiz and features that Al-Jahiz were unique to in literature. It can be said that the existence of the conclusion of the research comes to confirm that (the mind) is a clear topic, but rather to explore its features, manifestations, and intellectual and practical values affecting the literature of Ibn Al-Muqaffa, the wise man of letters, and Al-Jahiz, the literary philosopher. And here they meet and separate as well.

Keywords: Ibn Al-Muqaffa, Al-Jahiz, Mind.